الدرس الأول

شخصية الباحث

وأثرها في الوصول السلس للمصادر

يرتبط نجاح الباحث في التاريخ في عملية الوصول السلس إلى المصادر والمراجع بعملية الإعداد والتدريب التي حاز عليها من قبل. ومن هنا، تعتبر عملية بناء وتكوين الباحث في التاريخ واحدة من الأمور التي لا يمكن تجاوزها في حال أردنا بحثاً على مستوى عال من الجودة. وهذا يعني علينا إعداد باحث على مستوى عال من الأهلية العلمية والذهنية، ويكون على درجة واعية من الثقافة والوعي التاريخي، وبالتالي يصبح مدركاً لكل ما يمكن أن يساعده في انجاز أعماله بالشكل الذي يجعله مميز.

وكما نعلم ان الباحث في التاريخ يدرس التاريخ باحثاً عن الفعل ورد الفعل الصادرين عن الإنسان وبيئته غير المستقرة، وهنا يظهر دور البحث التاريخي في تنظيم معارف الإنسان وأفعاله تجاه محيطه بحثاً عن الحقيقة، إذن هو يتحرى ويبحث عن الحقيقة ويصفها، ولكنه يصدر الأحكام ويعطيها تفسيراً يقوم على أساس التصورات الموصولة بمعنى الحياة، ويخضعها لمنهج علمي يقوم على الأسباب والمسببات لاغياً عامل الصدفة والحظ، معتمدا على دوافع براغماتية وأخلاقية، والمؤرخ في ذلك يؤكد الحقائق التي لم يكن بالإمكان حدوثها بطريقة خلاف التي حصلت بها (التكرار – التعاقب) .

ومن خلال ما سبق، يمكننا القول، إن الباحث في التاريخ يجب أن يكون شخص محترف متدرب على العمل الكتابي تدريباً علمياً، ومن الضروري أن تتوافر فيه الاستعدادات الفطرية، النفسية والكفاءة العلمية المكتسبة التي تؤهله للقيام ببحث تاريخي مميز، والتي تساعده على تنظيم المعلومات التي يريد نقلها إلى القارئ، تنظيما منطقيا له معناه ومدلوله، مرتبا أفكاره ترتيبا متسلسلاً، في أسلوب علمي رصين بعيد عن الغموض، والإطالة.

ومن هنا، ليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح متخصصا فيه كما يتصور بعض الناس، أو كما يتخيل لبعض الكتاب حينما يسطرون صفحات كثيرة عن حوادث ماضية أو معاصرة ويعتقدون بذلك أنهم يكتبون تاريخياً ما داموا قد امسكوا بالقلم

والقرطاس. لان مهنة الكتابة التاريخية دلالة لا يرتقي إليها أي الشخص إلا إذا حمل دلالتها ومعانيها لا لمجرد إلمامه بحكاية الماضي. وهذا يدفعنا إلى القول، ضرورة توفر الصفات الضرورية للمختص في هذا الميدان، وان تتحقق له الظروف التي تجعله قادرا على دراسة التاريخ وكتابته. وان قرب أو بعد الباحث في التاريخ من تلك المواصفات والصفات هي التي تحدد إن كان هذا الباحث موهوبا أم عادياً.

أن البحث التاريخي الجيد هو إفراز أو ثمار جهد باحثاً جيداً، وذلك نظرا لارتباط البحث بالباحث وتأثيرهما كل على الآخر، سلباً أو إيجاباً. والباحث في التاريخ متلازم مع الحدث التاريخي الذي يحركه باتجاه البطل أو الجماعة بهدفيه أساسها الحقيقة. ولكن طبعا بوصف وعرض وتحليل وإيضاح، يوظفها الباحث للوصول إلى الحقائق. وعليه، فان عمل الباحث في التاريخ موضوعي له طابع سياسي حضاري وله قيم اجتماعية فكرية(خير– شر) تهتم بالسلوك البشري بتنوعاته(فشل – نجاح) .

ومن اجل أن يكون الباحث على قدر هذه المسؤولية، هناك عاملان أساسيان لضمان تقدم وتطور قدرات الباحث في دراساته، وهما: استعداده وعملية إعداده. ولا يمكن التهاون بأي منهما، فلا يكفي أن يكون الباحث ذو استعداد جيد حتى يتمكن من تقديم عمل مميز، بل وينبغي أيضاً أن يكون معد إعداداً سليما. وهذا يعني، إنه لا يمكن أن يكون مؤهلا لأداء واجبه وعمله على الوجه الأكمل إلا إذا توافرت فيه صفات ضرورية تجعله قادرا على دراسة التاريخ وكتابته على أكمل وجه. علما، إن اكتساب القدرة على القيام ببحث منهجي، مكتمل الجوانب ليس بالأمر السهل، ولكن التدريب المتواصل، والاستعداد الفطري، العلمي، والإصغاء إلى توجيهات الأساتذة المتخصصين، كفيلة أن تنمي مواهب الباحث، وتضاعف قدراته على البحث بصورة مستقلة بمرور الزمن.

أولا: استعداد الباحث

إن مسالة استعداد الباحث في التاريخ، تعني توفر صفات محددة يجب أن يتحلى بها. وتنقسم تلك الصفات التي لابد أن تتوفر في شخصه إلى نوعين، هما: صفات ذات طبيعة غريزية موجودة في ذاته، أو صفات منهجية يكتسبها بالتدريب العلمي المنظم على

أصول البحث والعمل الكتابي من منظوره التاريخي. والأولى مكملة للثانية، ومقومة لها، وإذا ما تلاحمت فستكون منه، على الأقل في بدايات مسيرته في البحث والكتابة. وعلينا الوقوف عند هذه الصفات من اجل ارتسام صورة الباحث عند قراءتنا لما يقدمه من نتاج، وهي:

1. صفات ذات طبيعة غريزية:

وتشمل أموراً معروفة لدى المعنيين في شؤون البحث عند المؤرخ، ومنها نذكر:

أ. حب المعرفة والصبر على تحصيلها مهما كانت الصعوبات والمشاق التي تعترض طريقه، ولا يجوز أن تكون ندرة المصادر أو غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها واضطرابها عائقاً أمام رغبته الجامحة في البحث عن الحقيقة. وينبغي على الباحث أن لا توقفه ندرة المصادر ولا يصرفه عن عمله غموض الحقائق التاريخية واختلاطها فيقضي الشهور والسنوات وهو يعمل باحثا عن الحقيقة، الأمانة والشجاعة وعدم الانتحال والتزييف وعدم التحيز لعصر أو تيار فكري، فهو كالقاضي لا يكون حكمه صحيحا إلا بقدر التخلص من التحيز والهوى. كما يلزم على المؤرخ أن يكون ذا ثقافة عريضة، وان يكون ملما بالتيارات المختلفة التي تؤثر في مجتمعه الصغير وعالمه الكبير، ومتفهما لتفسيرات المدارس التاريخية المختلفة، مستفيدا من أهم العلوم المساعدة للتاريخ. وهذه العقلية لايمكن توفرها كصفة من الصفات الأساسية في المؤرخ إلا من خلال العمل الدؤوب والمستمر في تطوير القدرات الذاتية وترسيخها.

ب. ينبغي أن يكون شجاعاً في التعبير عن رأيه، وفي ذكر ما توصل إليه من حقائق ونتائج، وغير مجامل أو منافق، وإلا يخفي بعض الحقائق التي توصل إليها، وان يكون هدفه الحقيقة التاريخية وحدها.

ج. أن يتحلى بالصبر والتأني وعدم التعجل في إصدار الأحكام، وان يعطي بحثه الوقت الكافي للمناقشة والمقارنة والتحليل والتفسير. وليس محتما أن يذكر كل الحقائق المتصلة بالموضوع الذي يعالجه، وإنما عليه أن يذكر ما توصل إليه من نتائج، وان يحدد النقاط أو المواقف التي لم يستطع إيضاحها أو تفسيرها أو

التحقق من صحتها، تاركا لغيره من الباحثين محاولة استكمال ما فاته في هذا الشأن. ومن هنا، يجب أن يكون المؤرخ صبوراً لا تمنعه صعوبة البحث والمصاعب والعقبات، مهما كان نوعها، عن مواصلة العمل والاستسلام.

د. أن يكون محباً لعمله، ومولعا به، حريصا على خدمة الحقيقة وحدها، غير قاصد من وراء عمله التقرب إلى حاكم أو الحصول على منصب، أو وضع التاريخ في خدمة المصالح السياسية. وان لا يكون مسعاه من وراء الكتابة التاريخية أن تحقيق حب الظهور والشهرة.

2. الصفات المنهجية:

فيما تعتبر الصفات المنهجية الأساس في عمل المؤرخ المحترف، وفي تطوير ذهنيته، فهي التي تتحدد بالمفردات التالية:

أ. ملكة النقد والشك.

ب. عدم التحيز في العمل الكتابي وتكويناته كشرط ضروري في تثبيت مكانة المؤرخ ومنزلته الفكرية.

ج. عدم التحيز والقابلية الكتابية والتي يدور حولها تدريب المؤرخ المبتدئ تدريبا علميا يؤهله لاكتساب منزلة الثقة بين اقرأنه، وتمكنه من متابعة حلقات الماضي، وفي تطوير صفاته التي تكون منه مؤرخا ناجحا.

د. أن يكون المؤرخ ذا روح حركية علمية دؤوبة، وان يستفيد من كل المصادر التي تفيد بحثه، وإلا يدخر وسعا في محاولة الوصول إليها مهما كلفه ذلك من مشقة وجهد ونفقات، ولا يعتمد على بعض المصادر وهو يعلم أن هناك مصادر أخرى قد تفيده في زيادة تفهمه للموضوع، أو تغيير بعض وجهات نظره.

هـ. التحلي بالموضوعية وعدم التأثر بالعوامل الذاتية، وإلا يجعل لأرائه الشخصية أو معتقداته الدينية أو اتجاهاته السياسية دوراً في تغيير الحقيقة أو طمس معالمها من اجل جعلها تخدم آراءه ومعتقداته، وإلا يقوم بدراسة موضوع ما وهو عازم مقدماً وقبل بدء الدراسة على تحقيق نتائج معينة، بل عليه أن يضع فكره وثقافته وميوله في خدمة البحث والحقيقة التاريخية وحدهما دون تحيز أو مجاملة.

و. أن يكون ذا قدرة على تصور المواقف التاريخية المختلفة، وان يحاول الاندماج في ملابساتها ومعايشة أبطالها، وتبين ذلك المناخ الذي وقعت فيه الحادثة، والعوامل الموضوعية والذاتية التي أدت إليها، وان يتعمق في نفسية الأبطال والقادة الذين أسهموا بأدوارهم في حركة التاريخ.

ثانيا: عملية إعداد الباحث

أما عن مسالة عملية إعداد الباحث، فعليه أن يعمل جاهدا لتهيئة نفسه بالشكل الذي يساعده على الانجاز الأفضل لما هو قائم عليه. ويساعد هذا الإعداد على اختصار الوقت اللازم، ليصل خلاله الباحث لمهنية رفيعة من البحث، وإعداد الباحث عملية مستمرة، لضرورة مسايرته لركب العلم والاطلاع على ما يصدر من معلومات جديدة. ومن أهم ما يلزم تعلمه، والتدريب عليه للباحث، ما يلي:

1. القراءة الواعية المتأنية وجمع المعلومات، وهما الأساس في إعداد الباحث للعمل المكلف به. وعلى الباحث أن يقرأ ليس فقط في موضوع تخصصه، بل وفي مواضيع أخرى متشعبة، فاتساع المعرفة، يؤدي إلى سعة الأفق، وتنوع الأفكار وتجددها، وخلق الابتكار. ومن هنا، ثقافته التاريخية مسالة ضرورية جدا في التعامل العلمي الصحيح مع الأحداث، ومن دون هذه الثقافة لا يمكن للمؤرخ أن يلم بالموضوعات التي يدرسها.
2. الإلمام بقواعد العلوم الأساسية والقواعد العلمية، والتي تعتبر خير الدعائم التي يرتكز عليها، ليقيم بنيانه الفكري.
3. التدرب على تقليب الأمور وتدبرها عبر ملاحظة التوافق والتعارض بين النتائج والنظريات أو الأفكار السائدة، عامل له دلالته، في خلق أفكار جديدة، وفي تطوير معارف قائمة.
4. تنمية الفضول العلمي، لان تنميتها يساعد الباحث لبذل جهد اكبر من اجل تقصي الوقائع الوصول إلى كل ما هو جديد.

5. إذكاء روح المناقشة، وتفيد المناقشة في تقصي الحقائق، وتبادل وجهات النظر بين الأفراد، وتوجيه نظر الباحث لزوايا أخرى للموضوع، والتزود بمقترحات نافعة، وتجنب أخطاء كان من المحتمل الوقوع فيها.
6. حضور الملتقيات، يودي ذلك إلى تعرف الباحث بغيره من الباحثين العاملين في مجال تخصصه، والى زيادة اهتمامه بما يقوم به من دراسات، وإدراك كيفية المناقشات والمعارضة والتأييد.
7. التدرب على طريقة كتابة البحث، إذ لا يقل الإلمام بمنهجية كتابة البحث عن أهمية القراءة والتحليل. إذ ينبغي على الباحث تعلم ذلك ليكون تعبيره واضحا، دقيقا، مختصرا، وبأسلوب سلس.

خلاصة القول، إن شخصية الباحث في التاريخ لا تكتمل إلا إذا تحققت الصفات التي اشرنا إليها، وبامتلاكها سيتمكن من تحقيق الشروط الثلاث التي تأخذ به نحو كتابة تاريخية على مستوى عال من العلمية والموضوعية، واعني هنا:

1. القدرة العلمية.
2. قدرة التأمل والتفكير ونفاذ البصيرة.
3. القدرة الأدبية.

وهذه الأمور إذا ما اجتمعت في شخصية الباحث فان أولى ثمارها ستظهر في نجاحه في الوصول السلس إلى المصادر والمراجع التي تمكنه من انجاز أعماله بأريحية وتمكن. لكون التدريب الجيد يمكن الباحث في التاريخ من امتلاك المقدرة والنظرة الثاقبة في تميز المصادر والمراجع الجيدة عن التي لا قيمة لها. وهذا ما يؤكد ان قدرة الباحث على التميز مابين المفيد وغير المفيد من المصادر ، يشكل نصف عملية الانجاز الجيد للبحث الذي يقوم به.